

## نظرة تاريخية في ذكرى مولد خير البرية



## سيد سعد

المشرف الفني على دورية كان التاريخية  
صاحب مدونة مكسرات

elsayed\_saad@hotmail.com

وقد يمكن الجمع بين القولين ، بأن الذين نسبوا إحداهن المولد للعبيدين الفاطميين قصدوا بداية الفكرة ، وهي الاجتماع وأكل الطعام وتعليق الزينات وإظهار الفرح والسرور ، وهو ما ذكره المؤرخون عن موالد العبيدين الذين كانوا ينفقون مبالغ طائلة جداً في هذه المناسبات لإعداد الطعام والحلويات بلغت سنة ٥١٧ هـ ٤٦٧,١٤٠ ألف دينار كما أثبتته د. أيمن فؤاد سعيد في كتابه "الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد" (ص ٥٦١).

وكان الفاطميون يصنعون في الموالد "عروسة المولد" ، وهي من السكر المذاب ، فهذه بداية المولد مع الفاطميين أكل وزينات. أما السيوطي وابن كثير فقصدوا بداية قراءة المولد وإنشاد المدائح.

ويعتقد البعض أن فكرة الموالد والاحتفال بها فكرة قديمة سابقة على الإسلام ، كما ذكر ذلك عبد الغني النوي الشال في كتابه "عروسة المولد" بقوله: "ولا شك أن ظهور عروسة الحلوى قد أخذها الفاطميون عن عادات قديمة إما مصرية وقبطية وإما فارسية وصينية" ، ويرجح الشال المصدر المصري ، وهذا لا يسلم له ، فقد ظهرت هذه العروس مباشرة بعد احتلال الفاطميين مصر ولم يتح لهم وقت كافٍ لمعرفة حضارة المصريين القدماء ، إلا أن هذه القضية تحتاج مزيد من البحث والدراسة وربما كانوا يعرفونها أصلاً في تراثهم الفارسي القديم.

الواقع أن ؛ الخليفة الفاطمي "المعز لدين الله" عندما جعل مدينة القاهرة عاصمة خلافته حاول أن يستميل الشعب المصري ، فأمر بإقامة أول احتفال بالمولد النبوي الشريف عام 973 هـ . ويرى جمال بدوي مؤلف كتاب "الفاطمية دولة التفاريح والتباريح" أن إحداهن المولد من "كياسة الدولة الفاطمية وتفهمها لنفسية الجماهير ، فهي تعلم أن الشعب المصري مفتون بالسمير والفرح ، فخلقت مثل هذه الطرائف من الحلوى ومثل هذه الأعياد والحفلات ... فحققت هدفين: إشباع المواطنين المصريين إشباعاً دينياً بالمواليد والاحتفال بها وتقوية الحركة الصوفية ، وإبعاد المواطنين عن التفكير في محاسبة الحكام".

إلا أن المولد الذي ظهر زمن الفاطميين ومنهم انتشر في العالم الإسلامي ، فقد ألغى زمن الدولة الأيوبية ، حيث حاربت الدولة الأيوبية الاحتفالات والتقاليد الفاطمية لمحو نفوذ الفاطميين من العالم الإسلامي ، ولأن الدولة الأيوبية كانت سنوية المذهب بينما سابقتها شيعية مغالية ، لكن المصريين عادوا للاحتفال بالمولد النبوي في عصر المماليك.

## ولد

النبى محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)

منذ حوالي ألف وخمسمائة عام وبالتحديد سنة ٥٧٠ م ، وكان مولده في الجزيرة العربية يوم ١٢

ربيع أول من عام الفيل بمثابة فجر جديد أشرق على البشرية حيث جاء بدين جديد ورسالة جديدة هدفها الخير والعدل والتسامح.

فقد اتفق العلماء على أن المولد النبوي لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا زمن دولة الخلفاء الراشدين ولا في زمن الدولة الأموية لكنه وجد زمن العبيدية الفاطمية بمصر (٣٥٨-٥٦٧ هـ). فالناظر في السيرة النبوية وتاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم ونجد أحداً لا من العلماء ولا من الحكام ولا حتى من عامة الناس قال بهذه العمل أو أمر به أو حث عليه أو تكلم به .

قال الحافظ السخاوي في فتاويه: "عمل المولد الشريف لم ينقل عن أحد من السلف الصالح في القرون الثلاثة الفاضلة وإنما حدث بعد".

أما المقرئ فيقول في كتابه الخطط ( ١ / ص ٤٩٠ وما بعدها): "ذكر الأيام التي كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعياداً ومواسم تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم" .. "وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم وهي مواسم ( رأس السنة ) ، ومواسم ( أول العام ) ، ( ويوم عاشوراء ) ، ( ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ) ، ( ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ) ، ( ومولد الحسن والحسين عليهما السلام ) ، ( ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام ) ، ( ومولد الخليفة الحاضر ) ، ( وليلة أول رجب ) ، ( ليلة نصفه ) ، ( وموسم ليلة رمضان ) ، ( وغرة رمضان ) ، ( وسماط رمضان ) ، ( وليلة الختم ) ، ( وموسم عيد الفطر ) ، ( وموسم عيد النحر ) ، ( وعيد الغدير ) ، ( وكسوة الشتاء ) ، ( وكسوة الصيف ) ، ( وموسم فتح الخليج ) ، ( ويوم النوروز ) ، ( ويوم الغطاس ) ، ( ويوم الميلاد ) ، ( وخميس العرس ) ، ( وأيام الركوبات )".

وقال المقرئ في أتعاض الحنفاء (٤٨/٢) سنة (٣٩٤): "وفي ربيع الأول أُلزم الناس بوقود القناديل بالليل في سائر الشوارع والأزقة بمصر". وقال في موضع آخر (٩٩/٣) سنة (٥١٧): "وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة". وانظر (١٠٥/٣).

هذا أول ما تورده المصادر التاريخية عن إقامة المولد ، وإن كان الحافظ السيوطي في رسالته "حسن المقصد في عمل المولد خالف هذا فقال: "وأول من أحدث فعل ذلك صاحب إربل الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين ، أحد الملوك الأمجاد والكبراء الأجواد". وذلك في أوائل القرن السابع للهجرة.

وتعد "حلوى المولد" من المظاهر التي ينفرد بها المولد النبوي الشريف ، ويذكر المؤرخون أن الفاطميين هم أول من بدأ في صنع العروس من الحلوى في المولد ، فكانت سوق الحلاويين تمتلئ بتمثيل السكر على هيئة السباع والقطط والخيول والعراس. وكانت تسمى هذه التماثيل "العلايق" ، وهي تعلق بخيوط على واجهات المحلات ، كما كان الأمراء الفاطميون يقيمون المآدب الكبرى من أنواع الطعام والحلوى ، ويفتحونها لعامة الناس ، ويقدمون مسرحيات لتسلية الجماهير عن طريق "خيال الظل" ، وتبقى الشوارع مكتظة لعدة أسابيع ، وكانت المشاعل تُضاء من القلعة إلى الخانكة احتفالاً بهذه الليلة الكريمة.

وذكر المقرئزي أنها كانت تصنع من السكر على هيئة حلوى منفوخة وتجل بالأسباع ، ويدها توضعان في خصرها وتزين بالأوراق الملونة والمراوح الملتصقة بظهرها. ويقال في أصل العروسة أنه ولاعجاب الحاكم بأمرته أمر بان تخرج معه في يوم مولد الرسول بردائها البيض وعلي رأسها تاج من الياسين فقام أصحاب متاجر الحلوى برسم الأميرة في قالب الحلوى وقلد ذلك آخرون فرسموا الحاكم وهو يركب الحصان وصنعه من الحلوى.

أما قدماء المصريين فقد كانوا يحتفلون في الجبانة بأعياد الكهنة ومع أولادهم عرائس من الخشب ، وارتبطت عروسة المولد بفلسفة خاصة وهي أن المصريين كانوا يتصدقون بإعطاء الحلوى في ذكرى مولد الرسول صلي الله عليه وسلم ، ويقال أن الحكام الفاطميين كانوا يشجعون الشباب علي عقد قرانهم في يوم المولد النبوي ، ولذلك تفنن الصانع المصري في أن يشكل الحلوى علي هيئة عروس ويقوم بتغطيتها بأزياء تعكس العصر والتراث ، وأضيفت المروحة للعروسة الحلاوة بعد سنة ١٢٠٠ وهذه المراوح كانت تلازم حواء أثناء عملية وضع المولود والتي اعتبرها المصريون رمزاً للتفاؤل. فأنشاء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بأن لا تقام أفراح العرس والزواج إلا في مولد النبي عليه الصلاة والسلام ، واستبشر الشعب خيراً بذلك الأمر ، فكان أهل العروسين يقدمون الهدايا والحلوى ، ويقدم العريس لعروسه "عروسة المولد" رمزاً للفرحة بزفافها. ويروي أستاذ التاريخ الإسلامي د. احمد شلبي حكاية طريفة عن أصل عروسة المولد فيقول: "إن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله عندما كان يتأهب لتأديب بعض قبائل الصحراء المغيرة على أطراف مصر قال لجنوده وقادته مشجعا لهم على القتال: حاربوا بهمة ، وعندما انتصر سأزوج كلا منكم من عروس رائعة الجمال". ونجحت الحملة وعادوا منتصرين فزوجهم من أجمل جواريه ، وعندما حل الاحتفال بالمناسبة في العام التالي تصادف وجود المولد النبوي ، فقام ديوان الحلوى التابع للخليفة بصناعة عرائس جميلة من الحلوى لتقدمها كهدايا إلى القادة المنتصرين والى عامة الشعب وخاصة الأطفال.

وتؤكد الشواهد التاريخية أن عروس المولد مصرية خالصة ، ويحاول بعض المؤرخين الربط بينها وبين تقليد عروس النيل في عهد المصريين القدماء. ولكن لا توجد كلمة فاصلة في هذا الأمر ؛ لأن كثيرا من العادات والتقاليد المصرية تعكس تواملا مع الحضارة المصرية القديمة عبر آلاف السنين.

فقد ذكر "ابن إياس" الاحتفال في عهدين ؛ حيث عاصر في ربيع الأول عام ٩٢٢ هـ احتفالات السلطان المملوكي "قنصوه الغوري" الذي اتسم بالبدخ والترف ؛ حيث نصبت قاعة ضخمة بخيمة كبيرة في وسطها قبة على أربعة أعمدة مرتفعة زينت بالأواني والطاسات النحاسية وجلس على رأسها السلطان الغوري ومن حوله القضاة والأمراء وأعيان البلاد ، والقراء والوعاظ ، وبدأت الاحتفالات بمد الأطباق الحافلة بمختلف أنواع الأطعمة والمشروبات وتبارى المنشدون في المدائح النبوية .

وفي العام التالي ٩٢٣ هـ سجل "ابن إياس" أن الصورة تغيرت تماما ؛ حيث دخل العثمانيون مصر ولم يهتموا بإقامة احتفالات المولد ، وربما يرجع ذلك إلى نفس سبب محاربة الأيوبيين للاحتفال بالمولد ، لكنه ظهر بعد ذلك.

فقد ذكر المؤرخ "عبد الرحمن الجبرتي" في كتابه عجائب الآثار (٢٠١/٢، ٢٤٩) ومظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين (ص ٤٧) ان المستعمرين الفرنسيين عندما احتلوا مصر بقيادة نابليون بوناپرت انكمش الصوفية وأصحاب الموالد فقام نابليون وأمرهم بإحياءها ودعماها.

فقد اهتم نابليون بوناپرت بإقامة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م ، من خلال إرسال نقفات الاحتفالات وقدرها ٣٠٠ ريال فرنسي إلى منزل الشيخ البكري (نقيب الأشراف في مصر) بحي الأزبكية ، وأرسلت أيضاً إليه الطبول الضخمة والقناديل.. وفي الليل أقيمت الألعاب النارية احتفالاً بالمولد النبوي ، وعاود نابليون الاحتفال به في العام التالي لاستمالة قلوب المصريين إلى الحملة الفرنسية وقوادها!

قال الجبرتي في مظهر التقديس : " وفيها (أي سنة ١٢١٣ هـ ربيع الأول) :سأل صاري العسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الأحوال وتعطل الأمور وعدم المصروف فلم يقبل وقال (لأبد من ذلك) وأعطى الشيخ البكري ثلاثمائة ريال فرانسة يستعين بها فعلقوا حبالا وقناديل واجتمع الفرنسيين يوم المولد ولعبوا ودقوا طبولهم واحرقوا حراقة في الليل وسوارخ تصعد في الهواء ونفوطاً". وقد أوضح الجبرتي هدفهم من تأييد ودعم مثل هذه الموالد حيث يقول في تاريخ عجائب الآثار (٣٠٦/٢): "ورخص الفرنسيون ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعال المحرمات".

أما العلامة شبلي النعماني في كتابه "سفر نامه روم ومصر وشام" ، والذي طبع في مصر باسم "رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" ، كتب عن مشاهداته بمصر للمولد سنة ١٣٨٢ هـ ١٨٩٢ م ، فقال: "الاحتفال بالمولد هنا تتم في قطعة أرض فضاء... ويجتمع في كل خيمة جماعة خاصة من الفقراء والصوفية ويذكرون الله طبقاً لطريقتهم ، وطريقة الذكر تختلف تماما عن طريقة دراويش الهند ، حيث يقف جميع الناس في دائرة ويهتفون بصوت مرتفع معاً بكلمات خاصة بالذكر ، ويقتربون من الركوع مع هذه الكلمات ، ويأتون بحركات عجيبة برقابهم وخصرهم ، ولو نظر إليهم أحد من بعيد يخالهم يمارسون تدريبات رياضية ، وطريقة رقص الدراويش أكثر عجباً".